

رسالة التحقيق ومنهج الهدى إلى الطريق

للشيخ أحمد بن يوسف الراشدي الملياني

أ. عبد المنعم القاسمي الحسني

جامعة ورقلة

مُهَيَّن:

إن العناية بالتراث والاهتمام به من الأدلة البارزة على تقدم الشعوب وتحضرها، وكلما ازدادت عنايتنا بتراثنا كلما ازدادنا تمسكا به، وحفاظا على شخصيتنا العربية الإسلامية، وعدم الذوبان في الآخر، في وسط هذه العوالة التي لم ترحم الشعوب والمجتمعات التي لم تتحصن بأصالتها وأفكارها الخاصة، فراحوا في كل واد بهيمون، فقدوا تاريخهم، حضارتهم، ولم يعودوا قادرين على المواجهة والبقاء.

وضمن هذا الإطار يأتي تقديمنا لهذه الرسالة للشيخ أحمد بن يوسف الملياني، التي عثرت عليها في مكتبه الجد لنا الشيخ بنعزوز القاسمي الحسني رحمه الله (ت 1984م)، وسنحاول قدر الإمكان إعطاء صورة واضحة عن هذا الأثر الفكري، وذلك بتناول النقاط الآتية: التعريف بالمؤلف، التحقق من عنوان الرسالة، التحقق من صحة نسبتها إلى المؤلف، دراسة الشكل، دراسة المضمون، النتائج.

أ/ التعريف بالمؤلف أحمد بن يوسف الملياني وآثاره:

نسبه: هو الشيخ الولي الصالح العارف العالم، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن يوسف، وينتهي نسبه إلى إدريس الأصغر الراشدي نسبة إلى قلعة بني راشد⁽¹⁾. ونسبة الملياني جاءت من إقامته آخر عمره بمدينة مليانة.

مولد ونشأته: ولد حوالي سنة 840 هـ - 1437م، وقيل سنة 836 هـ، في دامود أحد قصور توات⁽²⁾، ومنه جاءت نسبته الدامودي، لا نعلم الشيء الكثير عن نشأته وعن شيوخه في العلم، إلا أخذ العلم في بداية أمره في مساجد "رأس الماء" حيث انتقل صغيراً من مسقط رأسه "دامود"، كما أخذ عن علماء تلمسان ووهران، ثم انتقل إلى بجاية أين تتلمذ للشيخ أحمد زروق⁽³⁾، وأخذ عنه عهد الطريقة الشاذلية، وسلك على يديه.

رحلته في طلب العلم: تذكر بعض المصادر أنه ساح في الأرض لمدة تزيد عن 15 سنة، بفاس، وتلمسان وتاهرت وفجيج، ثم انتقل إلى الزاب وبلاد الجريد القيروان طرابلس الإسكندرية القاهرة جدة، حج وأقام بمكة ومنها انتقل إلى المدينة المنورة حيث أقام هناك سنة كاملة⁽⁴⁾.

أعماله: وبعد هذه الرحلة العلمية والروحية عاد إلى بلاده ينشر العلم والطريقة معاً، فأسس زاويته بـ "رأس الماء" بوادي الشلف، درس بها مختلف العلوم الشرعية، وكون فيها المريدين، وسرعان ما عرف شهرة واسعة في المنطقة والمناطق المجاورة، وعرفت طريقته (اليوسفية) شهرة وسمعة كبيرتين، في مختلف أرجاء المغرب الإسلامي، وعم نفوذه الصحراء الجزائرية والمغرب الأقصى، وكون عدد من أتباعه جماعة تسمى بـ "الشراقة" أو "اليوسفية"، وقد انحرفوا عن الدين فعاب عليه الفقهاء، إلا أن الملياني تبرأ منهم وقاومهم.

مارس الشيخ الشؤون العامة وشارك في الحياة السياسية المضطربة في عصره، لكن بصفته مصلحا يحاول الدفاع عن الدين والوطن والشعب، فعارض الحكم الزياني معارضة شديدة، وذلك بسبب تحالفهم مع الإسبان، وبسبب معارضته هذه حكم عليه السلطان عبد الله الثاني (910 - 923 هـ) بالإعدام وأمر بأن يحرق حيا، ويبدو أنه خفف إلى وضعه تحت الإقامة الجبرية، إذ أننا نجده سجينا في أحد القصور الملكية بتلمسان، في عهد أبي حمو الثالث (923 - 934 هـ)، اتصل بعد ذلك بالأتراك، وساعدهم على مقاومة الإسبان، وتذكر بعض المصادر أنه التقى مع عروج واتفق معه على مقاومة الحملات الإسبانية على السواحل الجزائرية⁽⁵⁾.

كما كان الشيخ على علاقات طيبة مع علماء عصره منهم: الشيخ أبو عبد الله الخروبي⁽⁶⁾، وكذا الشيخ محمد بن عبد الجبار الفجيجي⁽⁷⁾ الذي زار الملياني أيام محنته مع بني زيان، ومن أصحابه أيضا الشيخ عمر الشريف الحسني الولي دفين مدينة فاس... وغيرهم كثير.

تلامذته: محمد بن أحمد الصباغ المدعو بن معزا، وهو والد صاحب البستان، ومحمد بن أحمد الشريف الزهار، سليمان بن أبي سماحة، عبد الرحمن السهيلي... وغيرهم كثير.

وفاته: توفي الشيخ بالقرب من مدينة مليانة في سنة 931 هـ - 1524 هـ، ودفنه ابنه محمد بن مرزوقة في مدينة مليانة، وبنى له باي وهران "محمد الكبير" ضريحا ومسجدا في القرن الثاني عشر الهجري، وقبره مشهور بزار.

آثاره: لم يترك الملياني الكثير من المؤلفات، بل لم يعرف عنه أنه كان مهتما بالتأليف، نظرا لطبيعة عمله، ومع هذا فقد استطعنا التوصل إلى معرفة بعض العناوين التي تركها منها:

1- حكم في التصوف⁽⁸⁾: عبارة عن حكمه التي سجلها بعضهم، وقد اشتهر عنه الكثير من الحكم، والتي لا تزال منتشرة بين الناس، ومن حكمه المعروفة: "خديم الدنيا أسير وخديم الآخرة أجير، وخديم الحق أمير"، و"من ذلك على الدنيا

أتعبك ومن ذلك على العبادة فقد أشقاك ومن ذلك على مولاك فقد نصحك"... وغيرها، والمخطوط موجود بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1066، ضمن مجموع من الصفحة 258 إلى 265.

2- رسالة في أحكام الخرق الشريفة: عبارة عن أقوال وحكم ورسائل الشيخ الملياني، جمعها أحد تلامذته، جمع فيه رسائله إلى أهل فجيح، فاس، تافيلالت، وحتى بلاد الهند... وغيرها. مخطوط في 45 ورقة، ضمن مجموع بمكتبة الأسرة العثمانية بطولقة.

3- رسالة في الرقص والتصفيق والذكر في الأسواق⁽⁹⁾: تضمنت عدة مسائل في التوحيد والعقيدة والتصوف، تناول بالحديث فيها: طريق المعرفة، درجات المعرفة، المكاشفة، المجاهدة، المراقبة... والمخطوط موجود بمكتبة بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 2792 د، وهناك نسخة أخرى بمكتبة الشيخ بنعزوز القاسمي.

4- الرموز والإشارات: مخطوط بالمكتبة القاسمية بالهامل، أوله: "هذا كتاب الرموز والإشارات"، نسخ سنة 1325 هـ، 27 ورقة، لم نجد من أشار إليه أيضا من الباحثين والمترجمين له.

5- مختصر لكتاب في التصوف: مخطوط بالخزانة العامة بالرباط في 40 صفحة رقم 1141. أوله: "قال T للسائل عن ذات مولانا هل هي حسية أو معنوية؟..."

6- المنهج الحنيف في معنى الاسم اللطيف: وهو عبارة عن رسالة تقع في 14 صفحة، يبدو أن موضوعها هو تفسير وشرح اسم اللطيف من أسماء الله الحسنى، والرسالة موجودة بمكتبة الشيخ بنعزوز القاسمي الحسني، ضمن مجموع. لم نجد من أشار إليها سابقا.

7- رسالة التحقيق ومنهج الهدى إلى الطريق: وهي موضوع هذه المداخلة.

ب/ تحقيق عنوان الرسالة:

العنوان واضح جلي من خلال التقديم للرسالة حيث جاء ما يلي: "هذه رسالة التحقيق ومنهج الهدى إلى الطريق"، وإن كان المؤلف لا يشير إلى عنوانها في مقدمته، ويبدو أن الناسخ أخذه من المنظومة التي بآخر الرسالة حيث يقول:

هذا كتاب جامع للخير وكل فن من علوم البر
سميته رسالة التحقيق ومنهج الهدى إلى الطريق

ج/ تحقيق اسم المؤلف:

جاء في تقديم الرسالة: "هذه رسالة... للشيخ الولي القطب الغوث سيدي أحمد بن يوسف الراشدي، أدركنا الله ببركاته"، على أن المؤلف لا يشير إلى ذكر اسمه كعادة المؤلفين في ذلك العهد، من الاستفتاح بقولهم: يقول العبد الفقير إلى ربه.... إلخ.

د/ تحقيق نسبة الرسالة إلى المؤلف:

في دراسة سابقة لي حول شخصية الشيخ أحمد بن يوسف الملياني، لم أجد ذكرا لهذه الرسالة في المصادر والمراجع التي ترجمت له، بدءا بالصباغ وعلي بن الحاج موسى وانتهاء بالحاج صادق، ولم يشر أي باحث إليها، حتى أن الحاج صدوق ذكر أن الملياني لم يترك أي تأليف ذا بال، ومع هذا نستطيع التأكد من صحة نسبتها إلى المؤلف وذلك لمجموعة من الأدلة:

- لا زلنا إلى يوم الناس هذا لم نتعرف على كثير من تراثنا الفكري، الموجود في الخزائن والمكتبات الخاصة.

- ومن الأدلة على صحة نسبتها إلى الملياني، إنني عثرت في المكتبة السابقة الذكر بطولقة، على نسخة أخرى من هذه الرسالة، وبنفس العنوان وتنسبها إلى الشيخ أحمد بن يوسف، إلا أنها أقدم منها وليست بنفس الخط، وهو دليل على انتشار هذه الرسالة واشتهارها.
- أن النص يدل على سعة علم وعمق تفكيره، وممارسة عملية لهذا الأمر (التصوف) والذي يدل على أن كاتبه قد مر عبر هذا الطريق وخير سبله ومناهجه، ومارس التصوف كتجربة عملية، وهو أمر لا يتمكن منه إلا كل عارف واصل، مثل الشيخ الملياني.
- نلمس فيه ثقة بالنفس وقوة شخصية تشبه في ذلك شخصية أحمد بن يوسف الملياني، وهذه الروح نفسها نجدها في بقية رسائله، وكتاباتاته الأخرى، وعلى قلتها فهي تتميز بخصائص معينة: التمسك بالكتاب والسنة، الدقة والاختصار، العمق والتركيز، روح التصوف السامية، التوجيه والإرشاد الدائمين.
- ثم أن دوره كمرب ومرشد يفرض عليه التوجه إلى مثل هذه الرسائل لتوضيح العقائد والأصول على هذا الشكل من الرسائل المختصرة، التي يسهل مطالعتها وحفظها.
- إننا لم نجد لها إشارة أو ذكرا في المصادر التي تناولت التراث العربي الإسلامي بالذكر، كتاريخ الأدب العربي لبروكلمان، أو دليل مؤرخ المغرب الأقصى لابن سوده... ولا في فهارس المكتبات الأخرى، مما يثبت صحة نسبتها إلى الملياني، على اعتبار أنها غير منسوبة لغيره.

هـ/ دراسة الشكل:

تم الحصول على هذه النسخة من الرسالة من مكتبة الشيخ بنعزوز القاسمي، وقد وجدتها ضمن المجموعة الهامة من المخطوطات، ويبدو لي أنه حصل عليها عن طريق الإهداء من طرف أحفاد الشيخ أحمد بن يوسف الملياني بمليانة في إحدى زيارته إليهم.

ويقع المخطوط في عشرين ورقة، أوله: هذه رسالة التحقيق ومنهج الهدى إلى الطريق... وآخره: تمت الرسالة والأرجوزة بحمد الله وحسن عونه، ولا يوجد تاريخ للتأليف، أو إشارة تساعد على تحديد ذلك، أما تاريخ النسخ فهو أوائل ذي القعدة 1283هـ، كما جاء في آخر المخطوط. والناسخ هو محمد المنور بن محمد الخديم نجل الشيخ سيدي أحمد بن يوسف الراشدي دفين مليانة، أما بالنسبة للمعلومات الأخرى المتعلقة به فهي كالآتي: الخط: نسخي عادي، المداد: صمغ، أحمر عادي، كتبت به العناوين، عدد الأوراق: 20، الأسطر: 26 سطر، الورق: عادي، 225/160.

و/ دراسة المضمون:

قسم الشيخ أحمد بن يوسف الملياني رسالته إلى مقدمة وعشرة فصول:

المقدمة: وتناول فيها سبب كتابة الرسالة، وهو تنبيه أخ له من ضلالتة وجهله، فهو يرى أنها تأليف لرد الضال والجاهل، وتحديد الطريق له وسلوك سواء السبيل، يرسم له فيها القواعد التي يجب عليه أن يتبعها، ومن خلال العنوان الذي وضعه، يتجلى لنا هذا المعنى الذي قصده، رسالة التحقيق ومنهج الهدى إلى الطريق، فكأنه إذا التزم بها القارئ صار من المحققين والسالكين للطريق المستقيم، وذلك في مقدمته أنه تجنب التطويل ليسهل قراءتها والعمل بها، ثم هذه الرسالة في أرجوزة من 220 بيتا، منظمة سهلة الحفظ. جاءت في نهاية الرسالة. أما الفصول فهي:

1- الفصل الأول: في مسألة توحيد الله وظهوره واختفائه عن الأبصار بنوره، ونحن نعلم أن أصل في الدين والعبادات كلها هو التوحيد، ولذا نجد أن الشيخ قد افتتح بها رسالته، والتوحيد عنده هو أصل الإيمان، والإيمان هو تصديق القلوب بما علمه من الغيوب، وأن يعلم أن الله واحد، ولا تدركه العقول، ولا يجوز عليه التحيز، وهي آراء أهل السنة والجماعة التي اتفقت عليها معظم آراء العلماء المسلمين، فلا نجد فيها آراء منحرفة أو ضالة، من تشبيه أو اعتزال أو جهمية، تكلم أيضا عن صفات الله الكلام، العلم، القدرة، القرب.... وما إليها، كل ذلك بتقرير، ودون التعمق في الأدلة والبراهين، ودون إشارة إلى العلاقة بين الإيمان والعمل، إذ أن الظاهر من هذه الرسالة أنها رسالة توجيه وإرشاد، كما أنها رسالة تعليم ودراسة، كأنها تمثل خلاصة آراء علماء أهل السنة في المسائل التي سيتعرض لها لاحقا، وقد برر موقفه في المقدمة.

2- الفصل الثاني: في المعرفة وبيان أصولها: تناول في هذا الفصل قضية المعرفة، ونحن نعلم أن أبرز عناصر التصوف هو موضوع المعرفة، وغاية الصوفية هي الوصول إلى الله ومعرفة كما يتبين من خلال آرائهم وكتاباتهم وتجاربهم. ولا يتم هذا الوصول إلا بأن يعرف الإنسان ربه، فالمتصوف (باحث عن اليقين، بل عن حق اليقين، ويطمح أن يتجلى الله عليه).

والمعرفة في الاصطلاح هي: ما وضع ليدل على شيء بعينه وهي المضمرات والإعلام والمبهات وما عرف باللام والمضاف إلى أحدهما والمعرفة أيضا إدراك الشيء على ما هو عليه وهي مسبوقه يجهل بخلاف العلم ولذلك يسمى الحق تعالى بالعالم دون العارف⁽¹⁰⁾.

ولا يختلف الشيخ أحمد بن يوسف عن بقية الصوفية في هذه القضية فهو يوليها عناية كبرى، وأهمية عظمى، فإذا ما رجعنا إلى رسائله نجد أن كثيرا منها يتناول: طريق المعرفة، العلم الظاهر والعلم الباطن، درجات المعرفة، أصل المعرفة...

وخصها بفصل جعله في المحل الثاني بعد فصل الإيمان بالله، وبما أن هدف الصوفية الوصول إلى معرفة الله، فهو يحاول هنا تحديد المنهج والقواعد التي يجب إتباعها للوصول إلى هذه الغاية المنشودة، بل يعتبرها أول ما فرض على الإنسان من الفرائض والواجبات، فهو يقول: "وهي أول فرض افترض الله ﷻ كقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات 56) أي بمعنى ليعرفون"، ويقول في موضع آخر: "اعلم أنه يجب على كل مكلف من العباد أن يجتهد في طلب معرفة الله غاية الاجتهاد، ويجيل الفكر ويمعن النظر في ملكوت السموات والأرض، حتى كأنه يراه أو يكاد"⁽¹¹⁾

واستدل على ذلك بآيات كثيرة من القرآن الكريم، كما استدل بالسنة النبوية الشريفة، والذي نجده عند شيخنا أن المعرفة لا تتم إلا بواسطة العقل والتفكير والنظر. وهو غير منهج الإمام الغزالي T، فهو يقول: "اعلم هداك الله إنا لم نجد في كتاب الله Y ولا في حديث نبيه P دليلا على معرفته سوى العقل والفكرة والنظر"⁽¹²⁾.

ولعل هذه العبارة قد توضح لنا مسلكه في هذه القضية: "فإن علم منك (الله Y) محبة محققة أظهر لك أنوارا مشرقة، فإذا لاحت لك الأنوار وبدت لوامع الأسرار فاجعل نهارك صدقة وصيام، وليلك قراءة وقيام، وكل أيامك سلام في سلام، ونرجوا الله ذلك في نيل المرغوب وإدراك المطلوب والوصول إلى المحبوب"⁽¹³⁾.

وحقيقة المعرفة عنده وصفاتها هي معرفة الصفات، كما يتجلى لنا من قوله: "لا يعلم ذاته إلا هو والبلاغ في معرفته العجز عن تكييفه، فالسبيل لذلك مسدود، فمن وجوده قامت الموجودات وبقدرته قامت الأرض والسموات وبنوره قامت الأنوار وأشرقت الظلمات"⁽¹⁴⁾.

ونهاية معرفة العارفين. عنده. هي عجزهم عن المعرفة ومعرفتهم بالحقيقة أنهم لا يعرفونه، فهو دائم الاستشهاد بالأثر المروي عن سيدنا أبي بكر الصديق T: "العجز عن درك الإدراك إدراك".

ونقطة أخرى هامة في قضية المعرفة عند الملياني، وهي عدم التفرقة بين العلم والمعرفة، فنجده يقول: "واعلم أن المعرفة والعلم بمعنى واحد: اسمان مختلفان في اللفظ متفقان في المعنى، فكل عالم بالله عارف به، وكل عارف بالله عالم به"⁽¹⁵⁾. وهو رأي أوائل الصوفية الذين لم يكونوا يفرقوا بين العلم والمعرفة، وقد ظهرت التفرقة بينهما في وقت متأخر، فالأوائل لم يفصلوا بينهما⁽¹⁶⁾.

وللمعرفة عند الملياني عدة نتائج وثمرات، فيقول: "ذلك أن من عرف الله خافه وأطاعه وأمر بوحدايته والسمع له والطاعة وبذل النفس في محبته وخدمته بقدر الاستطاعة"⁽¹⁷⁾. - الخوف: - الطاعة: - التوحيد: - المحبة: "فمن له بصيرة عرف الله، ولا يشاهد أحدا سواه" وهو ما يعرف بـ "وحدة الشهود".

3- الفصل الثالث: في علوم البشر: تناول فيه التقسيم الكلاسيكي لعلوم البشر، فجميع العلوم انقسم على ثلاثة أقسام: ضروري، نظري، اضطراري، ومن وجه آخر: جوهر، عرض.

أما الضروري فما لا بد منه كعلمك بجميع الموجودات وما تشاهده من المخلوقات. والنظري هو الاستدلال على جميع العلل والأحوال. والاضطراري ينقسم على ستة أقسامك خمسة منها هي الخواص، والسادس على ثلاثة أقسام: واجب، ممكن، محال.

4- الفصل الرابع: في خلق بني آدم: تناول فيه بدء خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين، أما النفس فتخلف عند كمال خلقه في بطن أمه، فإذا بلغ أشده أربعين سنة كمل عقله، إما عقل دنيوي أو عقل أخروي: دنيوي الذي يتبع الدنيا، أعمى الله بصيرته وأضله ولم يهده، أخروي يشرح الله صدره وينور قلبه ويهديه ويبصره،

فينظر الأشياء بعين قلبه. لينتهي إلى حقيقة ضعف الإنسان ووجوب عبوديته لله سبحانه وتعالى، فهو يذكره بأصله، وأنه عبارة عن مخلوق لله يجب عليه أن يقوم بآداب العبودية، فإذا تقرر هذا عندك: "علمت أنك هيكل وآلة لصانعك، يتصرف فيك كيف يشاء، ولا إرادة لك معه إلا بإذنه، وإذا تقرر هذا وجب عليك التزام الأدب، الحياء، الخوف، الطاعة"⁽¹⁸⁾.

ثم يضع المنهج والطريق الموصل إلى هذه الغاية: ولا يكون إلا بواسطة أربعة أشياء: بذل الوسع، استفراغ الطاقة، ترك الاختيار، السكون إلى مجاري الأقدار. والتزم هذه الشروط وعمل بها، نتج لديه نوع من المعرفة يؤدي به إلى الخضوع لله سبحانه وتعالى والتسليم بقضائه وقدره، ومن كانت فيه هذه الصفة ثبتت له المعرفة، ويصير لا يشاهد شيئاً إلا الله Y ولا يرى مع الله إلا الله. وذلك لقول أبي بكر الصديق: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله.

5- الفصل الخامس في معرفة النفوس والأرواح: أرواح الأدميين ملك، وأرواح الملائكة قدس، والأولى أشرف وأعلى من الثانية، لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ ﴾ (لقمان 20) ولذلك الملك الذي أودع الله في آدم، وأرواح الجن دون أرواح الملائكة، وأرواح الحيوانات غير روحانية.

ثم يفرق بين الروح والنفس فيقول: "اعلم أن الروح غير النفس والنفس غير الروح، مستدلاً على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَتَسْتَلُوْنٰكَ عَنِ الرُّوْحِ قُلِ الرُّوْحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ (الإسراء 85)، ويذكر تشريف الله الروح وتكريمه وتفضيله على النفس، حيث نسبه Y لذاته، وهو لا يبلى ولا يفنى، ويرى أن القرآن نسب الأفعال كلها للنفس، ولم ينسب للروح شيئاً، وهذا دليل قاطع على أن الروح غير النفس. وهو بذلك لا يخرج عن التفرقة المعروفة لدى السادة الصوفية بين الروح والنفس، يعتبرون أن النفس محل الأوصاف المذمومة، وأن الروح هي نبع الأخلاق المحمودة".

6- الفصل السادس: في مستقر الأرواح والنفوس: وأن مصيرها الجنة، بالنسبة للأرواح الطاهرة، أما الكافرون فمصيرهم جهنم، ولم يأت في هذا الفصل بقضية جديدة، بل كرر ما قيل في المسألة.

7- الفصل السابع: في اختلاف العلماء في الروح والنفس: قال بعضهم أن الروح والنفس بمعنى واحد، وقال آخرون أن الروح معار من الله وأن النفس من مني الرجل، وقيل أن النفس معارة من الله مثل الروح، ومنهم من قال أن الروح هي النفخة، ومنهم من قال أن الروح روحاني وأن النفس أرضية.

8- الفصل الثامن: في الاستواء والتوبة: تحدث في هذا الفصل عن مسألتين أساسيتين هما: الاستواء، والتوبة، مسألة عقيدية، وأخرى عملية، لم نجد الرابطة بينهما، فأورد حديث ((الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والجحود به كفر والسؤال عنه بدعة))⁽¹⁹⁾.

ثم تناول فيه موضوع التوبة وشروطها، ويعرفها الشيخ الملياني، بقوله: "وأما التوبة فهي نور ساطع في قلب لامع يطرد النفس فينقلها عن الحالة التي كانت عليها بالأمس⁽²⁰⁾، فهي انقلاب شامل، ينقل النفس من وضع إلى آخر، من حالة أخرى، يغير سلوكات النفس البشرية من السيئ إلى الأحسن. أما حكمها فهي: فرض لازم على كل مؤمن ومؤمنة، لقوله Y: ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور 31).

وشروطها: رد المظالم، اجتناب المآثم وغض البصر عن المحارم، والندم على الذنب والإقلاع عنه، والعزم ألا يعود إليه. فإذا لازم هذه الشروط وعلم الله منه الإخلاص قبل توبته وتاب عليه وعفى عنه لقوله Y: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ (الشورى 25)".

وهي نفس الشروط التي نجدها عند الصوفية بشكل خاص وجهود العلماء بشكل عام⁽²¹⁾.

9- الفصل التاسع: في إثبات رؤية الرب Y وإخلاص النية وإفراغ القلب: وموقف الملياني من هذه القضية المعقدة الشائكة في تاريخ علم الكلام الإسلامي، هو نفس موقف أهل السنة والجماعة وعلى رأسهم الأشاعرة والماتريدية، ويتبنى آرائهم فهو يقول: "يراه المؤمنون في الدنيا بالبصائر وفي الآخرة بالأبصار، لقوله Y: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (القيامة 23)" وقد استدل على ذلك بالآية السابقة وبسؤال سيدنا موسى ربه رؤيته، تناول بعد ذلك موضوع الإخلاص، ولسنا ندري العلاقة بين رؤية الله والإخلاص، اللهم إلا قضية سيدنا موسى، وأن الشيء بالشيء يذكر.

والإخلاص هو أن تكون عبادتنا لله سبحانه وتعالى خالصة لا رياء فيها ولا غرور، من أجل رضوان الله تعالى وحده. وقد أمر به الله فقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ (البينة 5)، وجاءت الأحاديث النبوية تأمر به وتوجه العبد إليه، قال رسول الله Y: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ أَجْسَامِكُمْ وَلَا إِلَىٰ صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ))⁽²²⁾.

10- الفصل العاشر: في معرفة أصول آيات نزل بها الكتاب بأمر الملك الوهاب: أن للأشياء ظاهراً وباطناً، وكتاب الله Y له ظاهر وباطن وحد ومطلع. فالظاهر: وهو ما علمه الناس ووقفوا ما ظاهره، وقالوا بهذا أمرنا واستعبدنا، ولم يبحثوا عن علم الإشارة وحصولها وحقيقة أصولها، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ﴾ (النجم 30)، والباطن: ما علمه العلماء وبحثوا على حقيقته، والسبب الموجب له، فتحصل لهم الظاهر والباطن، والحد: ما وقف عنده العقلاء ولم يتعدوه، وأما المطلع: فهو الذي لا يعلمه إلا الله.

ثم شرع في تفسير ما غمض من هذه المسائل، تفسيراً قد يقرب الأمر بعض الشيء، حاول فيه استعمال العقل، وبهذه المسائل المتفرقات ختم رسالته القيمة المختصرة، فهي تقع في 30 صفحة. ثم تأتي الأرجوزة الجامعة للمعاني السابقة ليسهل حفظها ومراجعتها، تتكون من 220 بيتاً، تضمنت الفصول التي شرحها في الرسالة، وهي تقع في عشر صفحات، ختمها بمجموعة كبيرة من النصائح والتوجيهات، والدعوة إلى محاسن الأخلاق، من التواضع والحلم والصبر، والتقوى...

ي/ النتائج:

بعد هذه الجولة المختصرة مع هذه الرسالة القيمة، نستطيع أن نستخلص مجموعة من النتائج:

- اعتماد الملياني الدائم على الكتاب والسنة، واتخاذها مصدرين أساسيين في الاستدلال على آرائه وأفكاره، ثم الاعتماد على الخبرة الصوفية: الششيري، اللمع.
- مجهودات الصوفية في الحفاظ على العقيدة الإسلامية صافية نقية، والدفاع عنها ضد المبتدعة والمنحرفين، بكتاباتهم، بدروسهم، بتلاميذهم...
- يغلب عليه في هذه الرسالة النزعة الكلامية أكثر من النزعة الصوفية، والتي اشتهر بها. ويبدو أنه خصصها للموضوعات الكلامية ك: التوحيد، المعرفة، الاستواء، العقل، خلق القرآن... وما إليها من الموضوعات التي عرفت شهرة كبيرة في علم الكلام الإسلامي، وقد يكون عالج الموضوعات الصوفية في رسائل أخرى.
- كما أنه يستعمل المصطلحات الصوفية بشكل كبير، ولم يستخدم أدلتهم إلا فيما ندر. بينما نجده يستعمل كثيراً من المصطلحات الكلامية، ويستعمل كثيراً من أدلتهم، وهذا نظراً لطبيعة الرسالة وموضوعها، ومع هذا لم يستطع التخلي عن اتجاهه الصوفي، فنحن نلمحه في ثانيا رسالته، وفي مواقع منها. كقضية المعرفة، أو الحقيقة المحمدية، وما إليها من المسائل. وتعتبر الرسالة بذلك من أهم الوثائق الدالة على اهتمام علمائنا في العصور الوسطى بعلم الكلام.

- يعتبر الشيخ الملياني امتداداً لمدرسة بجاية في التصوف في القرن التاسع الهجري، والتي يمثلها الشيخ زروق التي ركزت على الدفاع على أصول العقيدة الإسلامية، ومحاربة الشيخ البدع والخرافات التي بدأت في الانتشار، وكتب كتابه قواعد التصوف، لتحديد هذا العلم، وإعطائه الصورة الحقيقية.
- يعتبر الملياني أبرز صوفية عصره، وأشدهم تأثيراً بشخصيته وبكتاباته، من بين كل معاصريه الذين كانوا يعملون في هذا الاتجاه، يستثنى منهم المغيلي الذي وصلت شهرته خارج الوطن. ولعل من أشهرهم: أحمد بن محمد المانوي (ت 930 هـ)، طاهر بن زيان الزواوي (ت 940 هـ)، عبد الحق بن علي المطهري (ت 935 هـ)، محمد بن موسى الوجديني (ت 930 هـ)... وغيرهم من أعلام التصوف في بداية القرن العاشر الهجري.

قائمة المصادر والمراجع:

1- المخطوطات:

- 1- بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار: محمد بن محمد الصباغ القلعي (ت 923 هـ = 1517 م)، مخطوط خاص.
- 2- ربح التجارة ومغنم السعادة فيما يتعلق بأحكام الزيارة إلى ضريح الولي سيدي أحمد بن يوسف الراشدي، علي بن الحاج موسى، مخطوط خاص.
- 3- روضة النسر في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين: محمد بن أحمد بن أبي الفضل "ابن صاعد" (ت 901 هـ)، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالحامة، رقم 2596.
- 4- عجائب الأسفار ولطائف الأخبار: محمد بن أحمد العسكري المعروف بـ "بوراس" (ت 1238 هـ). مخطوط بالمكتبة الوطنية بالحامة برقم 1220.

2- المطبوعات:

- 1- الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط 10.
- 2- أعلام المغرب العربي: عبد الوهاب بن منصور، الدار الملكية، الرباط، 1990.
- 3- البستان في التعريف بالعلماء والأولياء بتلمسان: محمد بن محمد المديوني التلمساني "بن مريم"، تحقيق محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية الجزائر، 1908.
- 4- تاريخ الجزائر الثقافي: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
- 5- تاريخ الجزائر العام: عبد الرحمن الجليلي، دار الثقافة، بيروت، 1980.
- 6- تعريف الخلف برجال السلف: أبو القاسم الحفناوي الديسي (ت 1361 هـ = 1942 م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1985.
- 7- التعريفات، شريف علي الجرجاني (ت 815 هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3، 1986.
- 8- دائرة المعارف الإسلامية: جماعة من المستشرقين، نقلها إلى العربية إبراهيم خورشيد زكي ومحمد ثابت الفتدي، دار الشعب، د.ت.
- 9- الرسالة القشيرية: أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري (ت 465)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1998.
- 10- الطرق الصوفية في الإسلام: سبنسر درمنجهام، ترجمة عبد القادر البحراوي، دار النهضة العربية، ط 1، 1997.
- 11- مليانة ووليها الصالح سيدي أحمد بن يوسف: الحاج صادق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989.

3- مصادر ومراجع باللغة الأجنبية:

- 1- Les Confreries Religieuses Musulmanes; Depont et Coppolain; Alger; 1997.
- 2- Saints et Societe en Islam; Rahal Boubrik; CNRS Editions.

الإحالات والهوامش:

- (1) قلعة بني راشد: قلعة قديمة تقع بين غليزان ومعسكر بالغرب الجزائري، نسبة إلى بني راشد، وهم أول سكانها، وبعد احتلال وهران صارت عاصمة لبلايك الغرب، عرفت القلعة بمقاومتها للاحتلال الأسباني، وبكثرة علمائها.
- (2) توات: إقليم يقع بالجنوب الغربي من الجزائر، اشتهر بكثرة علمائه، وأنه معبر للقوافل التجارية إلى الصحراء الكبرى، يتكون من مقاطعات ثلاث هي: توات، القواراة، تيكديلت، أنظر المرجع السابق ص 394.
- (3) زروق: أحمد بن أحمد أبو العباس الشهير بزروق، فقيه محدث صوفي، أخذ عنه الشيخ الملياني، محمد الأخضر... وغيرهم، له تصانيف كثيرة منها: شرح مختصر خليل، النصيحة الكافية، القواعد، شرح الحكم العطائية... توفي 899 هـ بطرابلس. ترجمته في جذوة الاقتباس 60، شذرات الذهب 363/7.
- (4) محمد بن محمد الصباغ القلعي: بستان الأزهار، ورقة 44.
- (5) د سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 144/2.
- (6) الخروبي: أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي، أخذ عن محمد الزيتوني، وعمر الراشدي... وأخذ الطريقة الزروقية عن شيخه زروق، له من التأليف: تفسير القرآن الكريم، شرح حكم العطائية، شرح الصلاة المشيشية... وغيرها، توفي بالجزائر سنة 963 هـ. أنظر: تعريف الخلف 489/2، إيضاح المكنون 274/2، هدية العارفين 245/2.
- (7) الفجيجي: محمد بن عبد الجبار الفجيجي التلمساني، فقيه مدرس شاعر صوفي، أخذ عنه أحمد الغماري التلمساني، له قصائد شهيرة في مدح الرسول p، توفي 950 هـ. أنظر: البستان 287، تاريخ الجزائر الثقافي 465/1.
- (8) أنظر: فهرس مخطوطات الخزانة العامة بالرباط، ص 163.
- (9) د أبو القاسم سعد الله: مرجع سابق ج 114/2.
- (10) شريف علي الجرجاني: التعريفات، ص 283.
- (11) رسالة التحقيق ص 04.
- (12) مصدر سابق: ص 04.
- (13) رسالة التحقيق ص 04.
- (14) رسالة التحقيق ص 05.
- (15) رسالة التحقيق ص 07.
- (16) طه زيدان: الطريق الصوفي، ص 139.
- (17) رسالة التحقيق: ص 04.
- (18) المصدر نفسه: ص 05.
- (19) هذا قول مأثور عن الإمام مالك بن أنس، وليس حديثاً، وهو مذهب أهل السنة والجماعة في قضية الاستواء.
- (20) رسالة التحقيق ص 24.
- (21) أنظر على سبيل المثال: التعرف لمذهب أهل التصوف ص 111، اللمع في التصوف ص 69، الرسالة القشيرية 50، إحياء علوم الدين 34/4.
- (22) حديث إن الله... أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة برقم 2564.